اللباس بين الماضي والحاضر

د. فريدريك معتوق

قُل لي ماذا تلبس أقل لك من أنت. هذا القول الذي ينطبق على الماضي أكثر مما ينطبق على الحاضر، له دلالة خاصة. فقبل أن تخلط الأزمنة المعاصرة الأمور، وقبل أن تقوم بصياغة علاقة جديدة مع اللباس، كان الناس يميّزون أنفسهم (تجبرهم في ذلك الأعراف الصارمة وتوجيهات السلطات في بعض الأحيان) بالثياب التي كانوا يرتدونها وبالقبعات التي كانوا يعتمرونها وبالأحذية التي كانوا ينتعلونها.

واكب اللباس المراحل التاريخية التي مرّت بها شعوب العالم كافة. وهذا ما دفع الغربيّين إلى اعتماد فكرة إنشاء متاحف للّباس، لما فيه من عبر تاريخية واجتماعية واقتصادية. حيث انه يمكننا أن نقرأ التاريخ الاجتماعي ـ الاقتصادي لأي شعب من خلال تحليل مكوّنات زيّه التقليدي والمواد الأوليّة التي كان يستخدمها في صناعة هذا الزي ومصادر هذه المواد الأوليّة.

فالحرير المستورد من الهند مثلاً يشير إلى وجود علاقة تجارية مع هذا البلد البعيد، كما أن اعتمار الطربوش النمساوي يشير إلى وجود عمليات تثاقف طالت الزيّ بشكل خاص من حيث كونه أكثر العادات تأثراً بالاحتكاك المباشر وغير المباشر بين الشعوب.

إضافة إلى أن الانسان اللبناني، لكثرة ما مرّت الجيوش الأجنبيّة على أرضه، احتفظ كتذكار له (!) بقطعة من لباسهم، درج على ارتدائها بعد رحيل المستعمرين؛ لذلك نجد اليوم بصمات عمليات العبور العسكرية التي عرفتها بلادنا في أكثر من زيّ من الأزياء التي نعتبرها اليوم أزياء تقليدية وشعبية لبنانية. فاللباس عندنا تأثر بموقعنا الجيو ـ سياسي على خريطة العالم، إسوة بما حصل لكل الشعوب الصغيرة.

من هذا المنطلق بالذات، أي من كون الزيّ رفيق المسيرة الاجتماعية سنقوم بتحليل اللباس الشعبي اللبناني، التقليدي والمعاصر، أي ان هدفنا الرئيس سيتخطّى اللباس بحدّ ذاته لنصل إلى خلفيّة هذا اللباس الاجتماعية. من هذا المنطلق تغدو مسألة فنّ الزي مسألة ثانوية بالنسبة إلى بحثنا. نصبو إلى رسم تأقلم اللباس مع نمط الحياة الاجتماعية والاقتصادية في شمال لبنان، لا إلى تأليف كتاب حول تصميم الأزياء وخصائصه الفنيّة، مع حفظ حق هذه المسألة الهامة في إطارها.

1 ـ قديماً: شكله وعناصره

لنبدأ بالطفل الرضيع:

قبل الأربعينات من هذا القرن، على خصر المولود الجديد كان يضع الأهل زنّاراً من اللُّبّاد شتاءً ومن الكتّان الناعم صيفاً، يحمونه به من المغص وأوجاع البطن. ثم يلفّونه باللفّافة، المصنوعة من اللبّاد أو من العزيز خام حسب إمكانيات الأهل.

وظيفة اللفّافة شدّ يدي ورجلي الطفل لتبقى مستقيمة، كما كان الأهل يلفّون رأس الرضيع بقطعة من الشاش الناعم لحفظه من الهواء ومن الحشرات الطائرة.

هذا هو لباس الطفل حتى الشهر الثالث حيث كان يُستبدل بالتبّان، باللّهجة الشعبيّة الطرابلسية، أو المنتان، أي الفستان المصنوع من اللّباد شتاءً، ومن القطن الباتيستا صيفاً.

آنذاك كانت الثياب الصوفية غير معروفة وغير رائجة عند عامة الناس. الأغنياء كانوا يلجأون إلى الحرير والشاش الناعم والجوخ والمخمل. أما متوسطو الحال والفقراء فكانوا يلجأون الى الباتيستا والكتّان واللّباد.

ويُعلّق على اللفّافة أو المنتان قلادة من الذهب أو من الفضّة فيها خرزة زرقاء. كانت تدعى هذه القلادة تعويذة، تمنع العين الشريرة من ايذاء الطفل.

بهذا السلوك الذي لم ينقطع كلياً كان يشترك الجميع من كافة الفئات الاجتماعية.

وكان الحفاض، المصنوع من الكتّان الأبيض أو من الخام، القاسم المشترك لجميع الأطفال الرضّع.

نلاحظ هنا أن القسم الأكبر من ملابس الطفل كانت من صناعة محلّية. فالباتيستا والكتّان والخام واللّباد كانت جميعها قطنيّات تصنعها المصانع المحليّة، وخياطة الحفاضات كانت تتمّ محلياً، حيث ان الحفاض الصناعي، الورقي، لم يكن معروفاً في ذلك الحين.

ملابس الطفل الرضيع لم تتغيّر كثيراً في تصميمها. فأوجه التشابه عديدة بين الماضي والحاضر على هذا الصعيد. إلّا أن الاعتماد على المواد الأولية وعلى الخياطة في صناعة هذه الملابس كان محلّياً في الماضي، في حين أننا نشهد في الحاضر اعتماداً شبه كامل على الملابس المصنوعة في الخارج، من اللفّافة حتى الحفاض، مروراً بالخرام والأوڤرال والشوسون...

أخيراً، لا اختلافات تُذكر بين مختلف الأقضية الشمالية. العادة الوحيدة التي تميّزت به منطقتا عكار والمنية هي أن تقوم الجدّة (من جهة الأم) بتقديم ثياب أول طفل لابنتها (من زنانير ومنتان وملفّة ـ التي يُقال لها أيضاً في المنية ملفافة).

* المنتان ومن بعده الجلّابيّة كانا يرافقان الأطفال (ذكور وإناث) حتى سنّ العاشرة تقريباً، بعدها تلبس الفتاة الفستان، والصبي يلبس الشروال والقميص العربي.

أما أطفال الأغنياء (البكوات، الأغوات، التجار) فكانت ملابسهم، اعتباراً من السنة الثالثة، ملابس مشابهة تماماً لملابس أهلهم. فمن الشروال الأسود الصغير إلى قميص الزّم إلى فستان الحرير، وبها كانوا يتميّزون عن سواهم من الأطفال.

التمييز الطبقي كان يستند عند الأطفال أيضاً إلى نوعيّة الأقمشة المستخدمة في خياطة الملابس. فأبناء الفقراء لم يكونوا ليعرفوا الجوخ الإنكليزي، المستورد والباهظ الثمن، سوى في تعبير «فلان بيجخّ»، أي يرتدي الجوخ الغالي.

وغالباً ما كان يبقى أبناء الفقراء حفاة حتى سن العاشرة، خلافاً لأبناء الأغنياء الذين كانوا ينتعلون التاسومة أو الجزمة المصنوعة من الجلد.

ميزة أخيرة تجدر الإشارة إليها هي أن ثياب الطفل الغني كانت تخاط عند الخيّاط (الذي كان يأتي إلى منزل الوجيه)؛ أما ثياب الطفل الفقير فكانت تفصّلها له أمّه أو جدّته في المنزل، انطلاقاً من فضلات القماش المتبقّية عن لباس الكبار، أو من ملابس قديمة تعمد الأم إلى فكّها واستخدام الجيّد منها. كلٌّ كان يمدّ البساط على قدّ رجليه، على حدّ تعبير المثل الشعبي، وشتّان ما بين قصر بساط وطول آخر.

ولو قارنّا الأمر بما هو حاصل الآن، فإننا نلاحظ أن نمط الحياة المعاصر ساوى الى حدّ ما بين أطفال الطبقات والفئات المختلفة؛ فالكل يشتري الثياب الجاهزة (والفرق في أن تكون القطعة Signée أو غير Signée).

إضافة إلى حصول تبدّل هام في ذهنيّة الأهل وهو عدم اللجوء إلى فضلات القماش لخياطة ملابس الطفل، بل الاعتراف بحقّ هذا الأخير بلباس متميّز ومصنوع خصّيصاً له. دخول الصغار في اعتبار الكبار هذا، ساهمت في بلورته المدارس الحديثة التي ساعدت الأهل على إدراك خصوصيّة شخصية الطفل وضرورة احترامها. وهذا التبدّل في ذهنيّة الكبار تجسّد، فيما تجسّد، في إقامة حفلات الميلاد الخاصة بالأطفال.

ولعل إحدى مميزات الأزمنة الحديثة في بلدنا أن الطفل تحسّن في مواقعه الاجتماعية أفقياً وعمودياً. أفقياً بدأت عملية المساواة تشقّ طريقها. فالمدرسة مُعطى جديد يساهم في إبراز مؤهلات لم تكن لتستثمر بالشكل المطلوب في الماضي. كما أنّ توحيد الزيّ ونيل كل الأطفال الى حدّ ما ما يحتاجونه من لباس وأحذية جعل المعادلة أكثر اتزاناً.

عمودياً أصبحت مكانة الطفل محفوظة. ففي معارض الكتاب جناح خاص للأطفال. وكذلك في محلات الألبسة. وكذلك بالنسبة إلى أماكن اللعب، حتى داخل البيت أصبح الطفل يحتلّ ـ برضى الأهل الكلّي ـ مساحات أكبر من ذي قبل. ففي السابق كان يقذف به إلى الشارع ليلعب وليبعد الضجّة عن الكبار. أما اليوم فالأهل يهتمّون به نسبياً في البيت، داعين رفاقه إلى الداخل ومخصّصين بعض الأعياد للطفولة والأطفال.

وفي هذا الاعتبار المعنوي الجديد أكثر من دلالة وعبرة.

* مفهوم لباس الرجل، سابقاً، كان يختلف عن مفهوم اللباس الرجّالي الحالي. ففي إطار مجتمع زراعي تقليدي وفي ظل نمط العلاقات السائد أيام المقاطعجيّة كان الرجل رمز السلطة في البيت. كان صاحب القرار و«تاج البيت».

وطالما أن موقعه الاجتماعي هو موقع المتقدّم فلا بدّ، في الذهنيّة السائدة، أن يعكس مظهره الخارجي هذا الموقع. لذلك فاجأت إحدى الجدّات طالبة من طالباتي التي كانت تسألها عن عادات اللباس عند النساء سابقاً بقولها: «كانت كل واحدة منّا تمتلك فستانين أو ثلاثة تكفي حاجتها طوال العمر. وكنّا نحن نقوم بخياطتهم في المنزل». نذكر هنا، بالمناسبة، أن ثياب الرجل كانت تخاط عند الخيّاط، في سوق الخيّاطين؛ أما ثياب المرأة فكانت النساء تخطنها بأنفسهن في المنزل.

ثم تابعت الجدّة شارحة سبب ذلك التفاوت في المعاملة فقالت: «وهل من الضروري أن نلبس نحن؟ (بمعنى أن نتميز باللباس). فنحن في المنازل كل الوقت. لا يرانا أحد ولا نرى أحداً. المهمّ هو الرجل. فهو الذي ينبغي أن يلبس وأن يتفنّن بلباسه، حيث ان المطلوب منه هو تمثيل العائلة خارج البيت».

انطلاقاً من هذا المبدأ ارتدى مفهوم اللباس عند الرجل، في السابق، شحنة اجتماعية ميّزته على لباس كل من المرأة والطفل. فالزركشة في التطريز من نصيبه وأفضل الجلود والأجواخ. إضافة إلى أن ستر الجسم لم يكن مطلوباً منه، فلم يكن

يضطّر إلى اخفاء ثيابه، كما المرأة، تحت إزار أو حبرة سوداء. بل كان يعرض جمال ثيابه أو جمال قامته دون أن تعترضه أي مُحرَّمات في العُرف أو التقليد.

فعلى هذه الخلفيّة الدينيّة وعلى خلفيّة المجتمع الاقطاعي والزراعي تفصلت عادات اللباس في السابق. حصّة الأسد في حقوق الوجاهة كانت تذهب إلى الرجل، سيّد البيت. وانعكاس هذه الوجاهة الاجتماعية جليّ في مكوّنات اللباس وتوابعه، من غطاء رأس وعصا ومسبحة، الخ. تشكيلة اللباس الرجّالي كانت أوسع من تشكيلة اللباس النسائي، كما سنرى في الفقرات اللاحقة. وليس في ذلك صدفة، بل تناغم مع هوى الذهنيّة السائدة. فاللباس حاجة انسانية دون شك، ولكنه أيضاً عادة اجتماعية.

* الشروال، هذا اللباس الذي بدأ يختفي والذي لم يعد يرتديه سوى بعض الريفيّين المسنّين في كل من عكار وبشرّي والضنية والزاوية والبترون بقي سيّد الساحة، فيما يخصّ اللباس الرجّالي حتى نهاية الحرب العالمية الأولى، حيث بدأ يزاحمه البنطلون في العشرينات في منطقة بيروت وفي الثلاثينات في منطقة الشمال[1].

امتدّ هذا الاحتكار حتى الى ملابس المرأة، فهي أيضاً كانت ترتدي تحت فستانها أو تنورتها شروالاً من قماش الكتّان الأبيض كما سنرى بعد قليل.

الشروال الذي راج في شمال لبنان كان على نوعين. عُرِفَ النوع الأول بالشروال العكّاري، أي الشروال الذي كان يتميّز بسرجه القصير (ليّة قصيرة) فوق الركبة بشبر؛ وعرف الثاني بالشروال التركي، الذي تميّز بسرجه الطويل (ليّة طويلة) تهبط إلى ما تحت الركبة.

شَاطَرَ أهالي البترون وزغرتا ـ الزاوية والكورة وبشرّي أهالي عكّار في تفصيلهم للشروال، حيث أن هذا التفصيل كان مريحاً (لباس فضفاض يعزل أسفل الجسم عن الحرارة المرتفعة وعن الحرارة المنخفضة) وعملياً. فالليّة القصيرة تسمح بالعمل في الحقل ولا تعيق الحركة بتاتاً.

غير أن أهالي الضنّية تميّزوا عن باقي سكان الشمال في كونهم عُرفوا بذوقهم المميز في دكاكين سوق الخياطين. فهم كانوا يصرّون على أن يصل طول سرج الشروال إلى الركبة وأن تكون ثنياته كثيفة جداً، بحيث يُعطي انطباع وجاهة وعظمة عند المشي.

فإذا كانت صناعة الشروال العكّاري تتطلّب ثلاثة أذرع ونصف أو أربعة أذرع من القماش، كان الشروال الضنّاوي يتطلّب ستة أذرع من القماش، وفي بعض الأحيان سبعة.

أما الشروال التركي فكان رائجاً في أوساط العسكر التركي، من انكشارية محليّين وخيّالة.

الألوان المفضلة للشروال، في جميع المناطق، كان اللون الأسود أو اللون الكحلي.

من عادات الأغنياء أن يكون لهم ثلاثة شراويل (أسود وكحلي وبنّي) من الجوخ، لفصل الشتاء، وثلاثة أخرى من الكتّان للأيام الدافئة.

أما ما تبقى من الناس فكانوا يملكون عادة شروالين (أسود أو كحلي)، واحد للعمل وآخر لأيام الراحة والمناسبات.

---

(1) على سبيل المثال، لم يعد يرتدي الشروال حالياً في بلدة بزعون (قضاء بشرّي) سوى 16 رجلاً من أصل مجموع سكان يبلغ 3 آلاف نسمة تقريباً. كذلك في بلدة بقرقاشا (قضاء بشري) لم يعد يرتدي الشروال سوى 21 رجلاً من أصل مجموع سكان يبلغ 4 آلاف نسمة تقريباً.

بماذا كان يتميّز شروال الفقير؟ كان يتميّز بأنه غالباً ما كان من قماش الكتّان الاسود الرخيص وان لا تطريز له على الجيب. كما أنه لم يكن يستخدم الخياط في صناعته الكرمسوت، هذا القماش الأحمر المنسوج على اليد والمستورد من ايران. فدكّة شروال الفقير كانت بلا كرمسوت.

أما القاسم المشترك الفنّي لكل من الشروالين، شروال الغني وشروال الفقير، فكان «الفقّيشة» هذه الفتحة الصغيرة التي كانت تسمح لصاحب الشروال بقضاء حاجة سريعة. ذلك أن انتزاع الشروال يتطلب «معاملة».

* وكانت شملته (زنّاره) تتميّز بتقشّف مماثل. كانت تبلغ عنده ذراعين أو ثلاثة فقط من القماش العادي يلفّ بها وسطه. في حين أن شملة الغني كانت تتميّز بطولها، فكانت تبلغ ثمانية أو عشرة أذرع (بعرض 25 سنتم) من الحرير أو من الباتيستا الناعم الملوّن.

في الضيّة كانت تدعى أيضاً الشملة «الحمصيّة»، نسبة إلى مكان صناعتها.

نذكر هنا أن الشملة كانت ترتدي شحنة عاطفية خاصة. فالذي كان يودّ أن يهين شخصاً ما، كان عليه أن يكتفي بإهانة شملته فقط لكي يشعر صاحبها بأن الاهانة شملته هو بكلّيته. ففي بشرّي قديماً كان الشاب الطالع أو القبضاي الذي يرغب في تحدّي الآخرين يفكّ شملته ويجرّها على الأرض من خلفه، عن قصد. فإن تجرأ أحد وداس عليها فإن التحدّي يُعتبر قائماً والمشكل حاصلاً.

يذكرنا ذلك بما كان قائماً عند النبلاء، الأوروبيين الذين كانوا يتحدّون بعضهم برمي كفّ من الجلد أو من القماش أمام من يريد تحدّيه. فإن داس عليه هذا الأخير وقع المشكل، على حدّ التبعير الشعبي. وإن لم يدس عليه عنى ذلك أنه أبى رفع التحدّي.

هذه الحساسيّة التي كان يصطبغ بها اللباس لم تعد معروفة اليوم. فمفهوم اللباس سابقاً كان يعطي هذا الأخير بعداً معنوياً واسعاً. فاللباس جزء من الشخص، علاقته حميمة به إلى درجة أن أي ايذاء يوجه إلى اللباس يشعر به صاحبه وكأنه ايذاء في عضو من أعضاء جسمه.

بردت علاقة الأجيال الحالية باللباس وأخذت منحى آخراً. لم يعد اللباس كما في السابق، يحمل شحنة معنويّة لها علاقة بأكثر المجالات الحساسة عند الإنسان في الشرق، ألا وهي مسألة الكرامة والشرف.

لنعد الآن إلى مميزات شروال الغني. على ماذا كانت تقوم.

كان يُعرف شروال الغني من ليّته الفضفاضة ومن قماش الكرمسوت الذي كان يستخدم في صنع الدكّة المزمومة في أعلى الشروال والتي كان يُدخل فيها حبل من الكتّان يستخدم لشدّ الشروال على الخصر. كما كان شروال الغني مطرزاً على الجيبتين، له طبشتان من الحرير الهندي أو الايراني. إضافة إلى أنه كان يتميّز عند ساقيه وعلى طول القدمين بخرج (تطريز) من الحرير. كان له، عند قدمه، عشرة أطواق من الخيطان البارزة الحريرية السوداء، وعند ساقه كان له خرج من خمس أطواق من خيطان الحرير. وفي عكار كان يُقال عن الشروال المطرز شروال مُحرّر.

شروال الفقير كان يُصنع من الكتّان الأسود أو من الفاصونا (قماش قطني خفيف). أما شروال الغني فكان يُصنّع من كتّان فخم انكليزي الصنع (ماركة ليرات الانكليز) صيفاً، ومن الجوخ الانكليزي، في فصل الشتاء؛ وقد غلب إسم القماش على اسم شروال الجوخ، فأصبح هذا الأخير يسمّى «شروال بركات» مثلاً، أي شروال جوخ مصنوع من قماش انكليزي مستورد ماركة بشّور وبركات، وكلاءه للشرق الأوسط.

* ثم يأتي القميص، القميص المزموم الذي كان يرافق الشروال.

ألوان القميص المفضّلة في المناطق كافة كان اللون الأبيض واللون الباج. كان يُصنع هذا القميص من الحرير (للمناسبات وأيام العطلة) ومن الباتيستا الأبيض أو الكتّان الأبيض (للعمل).

أما شكله، فيُقال له قميص «عشوش النحل» أو قميص «عشوش البلبل»، نسبة إلى الطريقة المتّبعة من قِبَل الخيّاط في زمّ عنق القميص. كان القميص أيضاً مزموماً عند الخصر وبصفة عامة طويلاً.

نلاحظ هنا أنه على صعيد القميص، كما على صعيد الشروال، كان النموذج الرائج واحداً وثابتاً، يعتمده الجميع. الفرق الوحيد الذي يجدر ذكره والمعترف به في الواقع المُعاش كان الفرق بين ما يلبسه وينتعله الغني وما يلبسه وينتعله الفقير.

ولشدّة ما كان الناس معقّدين من الجوع فإنهم كانوا يُعيرون «الكرش»، البطن المتقدّم، اعتباراً خاصاً. فكان يُدعى هذا الأخير كرش الوجاهة. ولشدّة ما راج ربط الوجاهة بغياب العمل اليدوي وبالتالي بحالة السمنة كان من يرغب في تقليد الوجهاء أو يذهب في مهمة تتطلب وجاهة، أي جاهاً معيناً، يضع حول بطنه، تحت القميص المزموم، عدداً من المناشف تعطي لبطنه الإنحناء المطلوب. فالجاه، مفتاح الثروة والنجاح في المجتمعات العربية على حدّ تعبير ابن خلدون، كان يرتبط ارتباطاً وثيقاً باللباس من جهة وباحتقار الأعمال اليدويّة.

* فوق القميص المزموم كان الطقم يفترض وجود صدريّة مطرّزة. كانت تُصنع عادة هذه الصدريّة التي كان يرتديها الأغنياء من الجوخ. عروتها وأزرارها كانوا يلبّسون بالحرير. عدد أزرارها، بصفة عامة في الشمال 25 زراً، يُعمد إلى تبكيل نصفهم فقط لتظهر قميص الزمّ من تحتها.

كانت تُصنع بطانة الصدريّة التي لم يكن لها أكمام بالنسبة للرجل (حيث أنها كانت تتميّز بأكمامها بالنسبة إلى المرأة الغنيّة) من قماش الكرمسوت البرتقالي أو الأحمر، الغالي الثمن.

* فوق الصدريّة كان الرجل الغني أو الفقير يرتدي السوكة، أي الجاكيت العربيّة، المفتوحة من الخلف وذات الزوايا المبرومة من الأمام، لها ثلاثة أزرار. نوعيّة القماش هي التي كانت تميّز بسوكة الغني عن سوكة المتوسط الحال أو الفقير. أما اللون المعتمد لهذه القطعة من اللباس الرجالي فكان اللون الأسود أو اللون الكحلي، كما أسلفنا في مضمار الشروال. يختلف لفظ السوكة من منطقة إلى أخرى، ففي عكّار تُدعى السوكو وفي الضنّية السوكيّة.

* القمباز كان منتشراً في المناطق الساحلية، في مدينتي طرابلس والبترون بشكل خاص.

هذا القمباز أو الإنباز أو الغمباز (حيث أن اللفظين الأولين لطرابلس والثالث للبترون) كان ثوباً من القماش المقلّم، المفتوح من الأمام، يُلفّ خصره بشملة من القماش أو بزنّار.

في أيام البرد كان يرافق هذا النوع من اللباس السوكة السوداء.

أما تحت الغمباز فكان المرء يرتدي شروالاً من القماش الأبيض (قماش قطني يُدعى بستوني) هذا الشروال الداخلي كان يُدعى في بعض المناطق (الريف خاصة) اللّباس. وعند المرأة كان يُدعى لباسة.

وغالباً ما رافق الطربوش، في المدن، الإنباز. إلى جانب العصا (للوجهاء) أو الخيزرانة (للقبضيات أو للشباب الطالعين).

ففي حين أن اللبّادة كانت رائجة في الأرياف، على إمتداد الجبل اللبناني، لدرجة أن طانيوس شاهين، في عاميّة إنطلياس، جعل منها رمز الفلاّحين، كان الطربوش التركي، النمساوي الأصل يروج في المدن الساحلية، بفعل الاحتكاك مع الأتراك شبه اليومي.

* كان الميسورون يرتدون أيضاً المشلح (هكذا كان يُقال له في عكار) أو العباءة (التسمية الرائجة في باقي المناطق الشمالية). وهو كناية عن ثوب مفتوح من الأمام، واسع جداً، يلفّ الجسم بكامله بحيث لا يظهر منه سوى الرأس واليدين. مصنوع من وبر الجمل، كان يقي من البرد تماماً في أيام الشتاء وفي السهرات. مطرّز على الحروف ومقصّب ـ بحسب مقدرة صاحبه ـ بخيطان فضية أو ذهبيّة، كان أهم قطعة في لباس الرجل. فشيخ القبيلة أو القرية أو الوجيه المتقدّم كان يعرف؛ عن بعد، من مشلحه.

اختلف إسم العباءة من منطقة إلى أخرى، ففي طرابلس وزغرتا ـ الزاوية وبشرّي كانت تُدعى أيضاً الحسويّة، أو الحويسيّة. في عكّار كان يطلق عليها أيضاً اسم الحاية. وفي هذا المجال تعبير شعبي يدلّ على أهميّة هذه القطعة من اللباس، الأفخم، والأكلف، والمرتبطة بالجاه والعزّ. كان يقال: «شو أنا عايش تحت حايتك؟ إفرقني وامشي»، أي انني لا أعيش في ظل حمايتك وجاهك، حيث ان الحاية هنا يقصد بها العباءة الفخمة، المأخوذة عن لباس مشايخ البدو والعرب الرُحّل.

* غطاء الرأس كان قطعة هامة من اللباس الرجالي والنسائي معاً. فالأطفال وحدهم كانوا يتنقلون دون تغطية رؤوسهم.

والرجل ذو الرأس المغطّى رجل محترم. وكان يُقال في عكار، عن الرجل ذي الرأس المغطى، رجل مُتنقّب (النقاب: غطاء الرأس).

أما عندما كان يقع المشكل فكان أول ما يحصل هو تطاير اللبّادات والطرابيش: هنا يصبح المشكل غير قابل للصلح قبل انتهاء العراك. وأسوأ ما كان يخشاه الناس قديماً كان نزع غطاء الرأس. كان يُقال: «مصيبة وكشفة راس؟» وتعتبر المسألة في غاية الأهمية.

وهنا نعود إلى الكلام الذي سقناه في معرض الكلام حول الشملة، حول حساسيّة اللباس الذي يصبح جزءاً لا يتجزأ من الشخص الذي يرتديه.

في المدن وعند المشايخ كان الطربوش الغطاء المعتمد. فالوجهاء كانوا يعتمدون الطربوش المصري، أي ذا الشرّابة الطويلة والمحتوية على خيطان حرير أسود تتراوح بين العشرين والمائة، لون الطربوش، كعرف الديك، أحمر لا محالة.

الريفيون كانوا يرتدون اللبّادة التي كانت تحميهم من البرد ومن الحرّ في وقت واحد. البعض كان يضيف على هذه اللبّادة كوفية سوداء (زغرتا ـ الزاوية ـ بشرّي) أو كوفيّة بيضاء (عكار، الضنيّة).

أما البرنيطة الفرنجيّة فقد دخلت منطقة البترون في بداية الشعرينات، عن طريق بعض المغتربين اللبنانيين من المنطقة والذين عادوا من القارة الأميركية. وقد راجت فيما بعد في المناطق المسيحية بشكل خاص لارتباطها بالفرنسيين أيام الانتداب.

أما المسلمون المؤمنون فلم يحبّذوا اعتمار هذا الغطاء الفرنجي (لعدم ثباته، كالطربوش، على الرأس وقت الصلاة حسبما كان يُقال في الأوساط الشعبيّة).

لكن عندما بدأ الشروال يغيب عن الساحة بدأ الطربوش، في بداية الثلاثينات، غياباً تدريجياً مماثلاً. حصل ذلك في

البداية في سوق العمل. حيث بدأ العمّال يجدون أن الطربوش غير عملي في ورش شق الطرقات التي كان ينظمها الفرنسيون. لذلك تعلّموا منهم لبس الكاسكيت الأكثر عملية والتي أطلقوا عليها اسم النوريّة. نوريّة! لماذا؟

لأنها تحجب أشعة الشمس عن الوجه وتسمح بمشاهدة النور دونما انزعاج.

* أما بالنسبة الى الحذاء فالتاسومة كانت الحذاء الجلدي الشعبي المعتمد. ويُذكر أن هذه التاسومة كانت بلسان من الجلد نافر من الخلف يساعد الشخص على إرتدائها في رجله. في بعض المناطق كان يطلق على هذا الحذاء إسم «الزرموزة».

أما الأغوات والبكوات فكانوا يفضلون لبس الجزمة الجلدية العالية والتي تتناسب مع ركب الأحصنة. الوجهاء الأغنياء كانوا يقتنون ثلاثة أزواج أحذية، بصفة عامة، واحد أسود وآخر بنّي وثالث أبيض تمثّلاً بالتجار الأوروبيين، من فرنسيين وايطاليين.

ثم درج في مطلع القرن الحالي اللاستيك، أي الحذاء الجلدي الذي كان يدخل في صناعته قطعتان من المطّاط الأسود (élastique). مهمّة هاتين القطعتين المطّاطتين كان تسهيل عملية إرتداء ونزع الحذاء.

* كيف ومتى بدأت عملية التحوّل عن اللباس القديم؟

بدأت هذه لعملية بعد فترة من الاحتكاك بالغربيين. أما مصادر هذا الاحتكاك الذي أدّى إلى بروز التثاقف، أي التأثر بسمات ثقافية خارجيّة، فكانت عودة بعض المهاجرين اللبنانيين الذين كانوا قد سافروا إلى الأميركتين في نهاية القرن التاسع عشر إثر النكسة الاقتصادية التي أصابت لبنان بعدما بدأت مصانع مدينة ليون الفرنسية تنتج الحرير الاصطناعي، مما أدى إلى تراجع واردات الريفيين اللبنانيين وإلى تعطّل أعمالهم.

عودة بعض هؤلاء المهاجرين كانت مناسبة سمحت للسكان المحليين بالاطلاع على بعض الأدوات التكنولوجية الغربية وعلى بعض مزايا اللباس الأجنبي. غير أن عملية التثاقف هذه لم تطال سوى المناطق ذات الغالبية السكانية المسيحيّة، حيث ان المغتربين كانوا قد نزحوا من الريف المسيحي بشكل رئيسي. لذلك نرى أن التأثر باللّباس الأجنبي عن طريق المهاجرين العائدين لم يعنِ ولم يشمل سوى مناطق البترون والكورة وبشرّي وزغرتا ـ الزاوية.

أتى التأثر الفعلي والشامل عن طريق الانتداب الفرنسي. ذلك أن الناس بدأوا يلبسون مثل المدنيّين الفرنسيين الذين كانوا يحتكون بهم في الدوائر الرسمية ويشاهدونهم في الطريق. ألم يلاحظ ابن خلدون ان المغلوب ميّال دائماً إلى تقليد الغالب؟

بفعل الانتداب وبفعل ورش العمل التي كان ينظمها الفرنسيون (ومن قبلهم الانكليز لفترة وجيزة) بدأ الرجال العاملون يحتكّون بنمط اللباس الغربي. حيث ان بعض العسكر الفرنسي (والبريطاني) كان يوجّه العمال على الطرقات ويعمل معهم أحياناً، فيتسنّى لهؤلاء ملاحظة كم أن اللباس الغربي عملي أثناء الحركة.

لنسرَ، على سبيل المثال، كيف أزاح البنطلون الشروال في منطقة المنية، قرب طرابلس.

كان الطريق الساحلي، الممتد من طرابلس الى اللاذقية هام جداً من الناحية العسكرية. لذلك عمدت السلطات الفرنسية إلى شق وتوسيع وتعبيد الطريق الممتدة بين عاصمة الشمال والغرب السوري. نظراً لضخامة العمل لجأت السلطات الفرنسية، ما بين 1929 و1930، إلى اشراك عمّال محلّيين على شكل فعالة.

بدأ العمال من أهل المنية يلاحظون كم أن البنطلون يساعد على الحركة ويسمح بالتنقل السريع. والبنطلون الذي كان يرتديه الفرنسيّون كان من قماش الكاكي.

كان العمال المنيويون يخجلون من ارتداء البنطلون، معتادين على مدى الأجيال على لبس الشروال. ولكن ذات مرّة حصل أحد العمال على بنطلون كاكي وعاد به إلى البيت ليلبسه في اليوم الثاني خلال العمل فشاهده أبوه. قال له هذا الأخير: «شو هيدا يا ابني؟»

أجاب الابن: «هيدا بنطرون يا أبي... هيدا بيلبسوه هيك». ولبسه الابن.

عندا شاهده أبوه مرتدياً البنطلون صاح به: «ولك يا ابني شو هيدا. هيدا بنطرون؟... هيدا مزرطون. مش شايف حالك كيفك مزروط زَرْط!».

اتفق بعدها الابن مع أبيه ألّا يلبس البنطلون سوى أثناء العمل. وكذلك فعل معظم العمّال المنيويين، حيث انهم كانوا يقتنون البنطلون الفرنجي للعمل ويرتدون فور عودتهم من الورشة الشروال العربي.

أما الملاكون وأغنياء القوم فلم يلبسوا أبداً البنطلون، معتبرينه غير مريح ومرتبط، في ذهنهم، بمفهوم العمل على الطرقات.

بعد فترة بدأ البعض يلبس بنطلون الكاكي هذا أثناء العمل وبعده. لكن لبس البنطلون لم يدرج نهائياً إلّا عندما ترافق مع ذهاب الأطفال الى المدرسة.

يُذكر، حول هذا الموضوع، أن طفلاً أتى ليتسجل عام 1958 في مدرسة المنية، مرتدياً شروالاً. فطلب المدير مقابلة والده واشترط على هذا الأخير أن يشتري بنطلوناً لابنه كي يتمكّن من تسجيله. فالجميع كان يلبس البنطلون، إسوة بالمعلمين. ولا مجال لكسر القاعدة باتجاه معاكس. عاد الأب واشترى بنطلوناً لابنه وسجّله في المدرسة، مقتنعاً، في قرارة نفسه، بأن ايجاد خياطين لجميع أطفال المدرسة مسألة صعبة ومكلفة وأنه من الأسهل أن يشتري الانسان بنطلوناً جاهزاً. وهكذا كان.

ساهمت بذلك المدرسة، الموروثة عن الانتداب الفرنسي، في طحن عادة ارتداء الشروال، مروّجة بديلاً لها تمثّل، بادىء بدء، بالبنطلون الكاكي، ثم بالبنطلون ذي الألوان المختلفة.

* إذا كان لباس الرجل شبه موحّد فإن لباس المرأة كان يشهد بعض الفروقات في السابق. فالنساء في الريف كن تلبسن لباساً متقشفاً بصفة عامة (إن في أوساط المسلمين أو في أوساط المسيحيين). فالريف كان فقيراً نسبياً، إذ كان من عادة أغنياء الريف أن يستثمروا أموالهم في طرابلس، من كل قرى الشمال، بدون تمييز طائفي. هذه المعادلة التي دكّت أسوارها الحرب الحالية بدأت تختفي وبدأ الريف يشهد حيويّة نسبيّة.

في السابق كان الريف فقيراً، وينعكس ذلك على ملابس أهله. فالنساء في الريف العكاري مثلاً كي يلبسن، في مطلع هذا القرن، فستاناً طويلاً ذا أكمام طويلة، على خصره زنّار. أو تنّورة فضفاضة وقميص وتحتهما اللباسة أو اللبوسة، أي شروال مصنوع من قماش الخام الأبيض الرخيص (أو من بقايا أكياس الطحين عند الفقيرات جداً). كانت اللباسة مزينة بكشكش فوق القدم على طاقين أو ثلاثة ولها سرج مثل الشروال مع دكة مزمومة على الخصر.

أما على الرأس فكان من الواجب أن تضع المرأة المسلمة، عند تنقلها، شلحة سوداء مع منديل على الوجه سميك، وعلى المرأة المسيحية أن تضع منديلاً على شعرها.

داخل البيت كانت المرأة المسلمة تضع على رأسها شاشيّة بيضاء (منديل من الشاش الناعم المصنوع يدوياً، مزيّن على أطرافه بالورود والخرز). بقي من هذه العادة القديمة أن يضمّ جهاز العروس الحالي في عكار عشر شاشيّات وفي الضنيّة اثنتا عشر شاشيّة.

في المدن كان اللباس يضمّ أيضاً، عند الميسورات، صدريّة مزركشة ومطرّزة، جميلة الشكل وبأزرار، لها أكمام طويلة واسمها دامر. أما عند النساء الميسورات (النادرة في الريف/فكان اسم هذه الصدريّة كشّافة في الضنّية وبولكا في عكار. كان الفرق بين الدامر والكشّافة والبولكا يتجلى في نوعية القماش.

في مدينة طرابلس كان لبس «الإزار ملحفة» رائجاً عند النساء خارج المنزل، والإزار كان الأسود، ولكن بعض النساء كن يلبسنه أبيضا.

تحت الإزار هناك الحبرة، الحبرة زمامة كما كان يُقال لها بسبب زماتها على الخصر، تربط على الجانب، وكانت كناية عن ثوب أسود يُلبس فوق الفستان.

الشلحة كانت تغطي الرأس وهي كناية عن غطاء أسود للرأس، طويل، يتدلى على الكتفين وعلى الصدر. في حين أن منديلاً أسوداً، مطوي على طاقين، كان يخفي تقاطيع الوجه كافة.

ثم بعد فترة راج في طرابلس، عند المسلمات، الكبوت الأسود، الذي حل تدريجياً محل الحبرة والذي أطلق عليه، في الثلاثينات، اسم «المانطو»، نقلاً عن اللفظة الفرنسية.

كما راج لبس الثياب الحريرية في كل من طرابلس والبترون حيث وفرة الأموال. أما في الريف فكانت اللباس الحريرية نادرة جداً.

في المدن كان من عادة النساء أن تلبس في المنازل القبقاب الخشبي. القبقاب المشهور في طرابلس كان القبقاب الشبراوي، أي الذي يعلو تقريباً شبراً عن الارض (شبر نسائي بالطبع).

أما خارج المنزل فقبل أن تروج الكندرة والسكربيني (اسمان للحذاء النسائي المستورد) في الثلاثينات، كانت النساء ترتدي الأخفاف، خارج المنزل. كنّ ينتعلن زوجين من الأخفاف واحد للشارع، يُخلع عند دخولهن الى المنزل، ويبقى الثاني في أرجلهن.

نلاحظ هنا ان مفهوم اللباس النسائي الرائج في القرن الماضي ومطلع هذا القرن كان يختلف عن المفهوم الرائج حالياً. وميزته، في حينه، أي في حدوده الزمنية والمكانية، أنه كان يلعب دوراً مختلفاً عن ذلك الذي كان يلعبه لباس الرجل.

فلباس الرجل كان مصمماً لكي يظهر، لكي يبرز وليشير الى مكانته الاجتماعية. أما لباس المرأة فكان مصمماً لكي يبقى مخفياً ومنزلياً، بعيداً عن أي محاولة في إبراز شخص المرأة الجسمي. بل كان مطلوباً منه ان يطمس جمال الشعر (بالمنديل) وشكل الوجه (بالشلحة والمنديل) وقامة الجسم (بالفساتين العريضة والحبرة والإزار عند المسلمات).

الألوان الفاقعة كانت من حصة الرجل. فالطربوش الأحمر والشملة الحمراء للرجل. حضور الرجل أيضاً بحذائه الجلدي اللاستيك وخاصة بجزمته (جزمة البيكس، أي جزمة الجلد اللميع المستورد).

لباس الرجل براق، ملفت للنظر من بعيد، فيه تفنّن و«جخّ».

أما لباس المرأة المفصّل على قياس دورها في مجتمع تقليدي، فعادي جداً وخاضع لأُطر وأعراف تقيّد أشكاله وأنواعه.

لباس الرجل عنوان لبيته كله. أما لباس المرأة فمقال في الصفحات الداخلية. مظهر لباس الرجل مقصود به أن يفرض حضوراً بطركياً واجتماعياً. أما لباس المرأة فالمقصود به ترجمة حضور المرأة المنزلي.

2 ـ إرتباطات اللباس

هل للباس من ارتباطات، سابقاً، بنظام الطوائف؟

طبعاً، نعم.

ذلك أن مراقبة اللباس وسيلة من وسائل ضبط المجتمع، فبدل أن يحمل الإنسان، أيام الحكم العثماني، تذكرة هويته في جيبه، كان يحملها على جلده. وكان عسكر الباشا يعرفونه مباشرة من ملابسه وحذائه وغطاء رأسه.

نلاحظ اليوم بعض بقايا هذه العادة السياسية ـ الاجتماعية التي رافقت أجدادنا لفترة طويلة. فالنساء المسيحيات في الريف ما زلن يلبسن الفستان الأسود صيفاً شتاءً (خاصة المسنّات). واللون الكحلي هو المفضل، الى جانب الأسود، عند الرجال للمناسبات الرسمية.

كما أن بعض المسنين في مدينة طرابلس ما زالوا يتذكرون كيف أن اللون الأبيض كان يعتبر لون الوجيه المسلم التقليدي، الى جانب اللون الأخضر عند النساء.

هذه كلها بقايا من عادات وجدها العثمانيون عند دخولهم وغزوهم البلدان العربية وعمدوا الى تثبيتها في إطار ما سمي بنظام الملل. فتوزيع الطوائف على ألوان محددة معروف منذ الخلافة العباسية. لكن العثمانيين عملوا على تثبيته والاستفادة منه لضبط رقابة المجتمع وتسهيل عمليات التدخل العسكري.

ومما يقوله الرحالة الفرنسي ڤولني الذي زار مصر وسوريا في نهاية القرن الثامن عشر:

«لا يُسمح للمسيحيين بركوب الأحصنة داخل المدن، كما يمنع عليهم ارتداء أحذية صفراء اللون وشالات بيضاء، وأي شيء يتميز باللون الأخضر. أما الألوان المخصصة لهم فهي اللون الأحمر فيما يخص الحذاء واللون الكحلي فيما يخص اللباس.

وقد جدّد مؤخراً الباب العالي توجيهاته في هذا الخصوص، طالباً منهم ان يعودوا الى الشكل القديم فيما يرتبط بالعمامة، حيث ينبغي ان تكون هذه الأخيرة من قماش موصلي كحلي، مع حاشية بيضاء واحدة» (**كتاب رحلة الى مصر وسوريا**، منشورات موتون، باريس، 1959، ص 373).

يبدو أن هذه التعليمات كانت إلزامية في المدينة. فالمسنون في ريف عكار وزغرتا ـ الزاوية والكورة يتذكرون بعض هذه الأمور (مثل منع ركوب الخيل والحرص على عدم ارتداء سوى الألوان القريبة من الأسود مثل الكحلي والبني) لكنهم يعترفون أن هذه القيود لم تكن ملزمة سوى في طرابلس. فالريفيون المسيحيون والمسلمون الذين كانوا يتجاورون في كل من عكار والضنية والكورة والبترون لم يلتزموا في مناطقهم بهذه الواجبات الادارية. ففي الريف كان اللباس شبه موحد عند الجميع. لذلك دلالة كبيرة.

فالتمييز في اللباس والألوان كان مصنطعاً، يعود لضرورات سياسة «فرّق تسد» العثمانية. غير أن أهل الريف الذين كان

يجمعهم نمط عيشهم وعملهم لم يشعروا بضرورة تكريس هذه الفروقات. فحتى الكوفية البيضاء والكوفية السوداء كانت تُرتدى عند كل من المسيحيين والمسلمين على حد سواء في ريف عكار. ذلك أن التمايز الحقيقي في ريف شمال لبنان كان تمايزاً طبقياً، فيما يخص اللباس. كان هناك لباس الأغنياء، ذو المعالم المحددة، ولباس الفقراء (والمزارعون كانوا ينتمون الى هذه الطبقة في غالبيتهم العظمى).

3 ـ حالياً، ماذا تغير؟

العادة التي تأثرت بفعل التثاقف الى حد كبير جداً هي عادة اللباس.

فلو قارنا بين ما كان يلبسه أجدادنا وما نلبسه اليوم نلاحظ أن الاختلاف شبه كلي. نجح الغرب في اختراقنا في هذا المجال الى حد بعيد جداً. ونشير هنا الى أن وضعنا هذا يشبه وضع غالبية بلدان العالم الثالث.

فملابسنا تغيرت، في ظرف قرن، شكلاً ومادةً.

* أشكال وموديلات اللباس الجاهز الحالي مستوردة، وكذلك مادته الأولية.

وهنا الفرق الأساسي مع الماضي. ففي السابق كان أجدادنا يعتمدون، في القسم الأكبر من موادهم الأولية على ما كان يصنعونه محلياً. فزراعة التوت كانت رائجة جداً وكذلك صناعة الحرير. كان الاعتماد في صناعة قمصان الزم عند عامة الناس على هذا النوع من الحرير. أما الأغنياء ـ وهم أقلية ـ فكانوا يتميزون بلبس قمصان من الحرير الهندي.

كذلك بالنسبة إلى القطنيات. فمادة القطن الأولية كانت تستورد من مصر ولكن صناعة الخام والكتان وحتى الباتيستا كانت تجري محلياً. واللباس النسائي (من فساتين وتنانير) كان يعتمد على هذه القطنيات المحلية. فبعضها كان يُصنع في شمال لبنان والبعض الآخر في مدينة حمص السورية.

كذلك اللباد كان يصنع محلياً ويستخدم في صناعة الملابس الشتوية.

الأحذية كانت تصنع أيضاً من جلود مشغولة محلياً (وسوق الصباغة في طرابلس كان مشهوراً في كل بلاد الشام). الأغنياء، فقط كانوا يصرّون على شراء جزمات من جلد البيكس المستورد اللميع.

المناديل والشاشيات النسائية كانت تصنع هي أيضاً محلياً.

أي أن الاعتماد على الانتاج والتصنيع المحلّيين كان ميزة اقتصاد اللباس في شمال لبنان حتى نهاية الحرب العالمية الثانية.

على الصعيد الفنّي والجمالي كان الاعتماد أيضاً على الأشكال والألوان الرائجة محلياً. فالقماش المستورد (الجوخ الانكليزي مثلاً) كان يخضع لعملية إعادة تأهيل تحت مقصّات خياطينا. كانوا يستوردون المادة الأولية فقط، وعند الحاجة، إلاّ أن الموديل وشكل التفصيل المعتمد كان يعود إلى الذوق المحلّي وإلى معاييره.

أما بعد استلام الانتداب الفرنسي سلطة الأمور السياسية ومقاليد الاقتصاد في لبنان، بعد معاهدة سيڤر الشهيرة، فقد تبدّلت الأمور تدريجياً.

بدأ تسهيل استيراد الأقمشة والمواد الأولية من أوروبا وبدأ توجيه الاقتصاد المحلّي باتجاه استهلاك منتوجات الصناعة الفرنسية بدل الاعتماد على الامكانيات الذاتية في تصنيع وتحويل الأقمشة والقطنيّات.

ثم بعد فترة بدأ التشجيع المنهجي على استيراد الجلود والأحذية الجاهزة، وبعدها الألبسة الجاهزة وبعدها العطورات وأدوات الماكياج النسائية.

حتى أننا اليوم نلاحظ إنتقالاً شبه كلي من عالم الى عالم. مفهوم اللباس تبدّل عندنا جذرياً بفعل عملية التثاقف المكثفة التي حصلت في ظل هيمنة سياسية واقتصادية غربية. ونوعية وصناعة الملبوسات اختلفت جذرياً عمّا كانت عليه في السابق. الاغتراب كلّي في هذا المجال. ذلك أن عمليات التثاقف التي حدثت بيننا وبين الغرب، في ظل ميزان قوى ما بعد الحرب العالمية الأولى، أي في ظل ميزان قوى لصالح الغرب بنسبة كبيرة جداً، حوّل عدداً كبيراً من عمليات التثاقف في بلدان العالم الثالث ـ ونحن منهم ـ الى عمليات اغتراب بكل معنى الكلمة.

فالاعتماد على الغرب في شكل ومادة اللباس أصبح كلياً.

ومفهوم الموضة، بالشكل المعروف في المجتمعات الاستهلاكية الرأسمالية، أطلّ علينا مرافقاً التحول الاقتصادي الذي تمّ ومحطماً ما كان موجوداً محلياً من أشكال شرقية وألوان مميزة تستخدم، حِرَفيّاً، في خياطة اللباس.

* الميزة الثانية للملابس التي اكتسحت السوق بعد الحرب العالمية الثانية انها، في غالبيتها العظمى، جاهزة.

ومن مميزات سوق الألبسة الجاهزة أنه سوق تجاري يعتمد على نمط الاستهلاك المعروف في البلدان الرأسمالية. ومحرك عملية الاستهلاك هذه فكرة هي الموضة.

فبدون موضة لا استهلاك مكثّف للملابس وحركة تقليدية بطيئة.

مفهوم اللباس السابق، كما شاهدنا، كان يعتمد على الحاجة المادية. أي أن جهاز العروس مثلاً كان يرافقها طيلة حياتها، توزّع منه على بناتها عندما يكبرن. عدد قطع اللباس كان محدوداً جداً، فالرجل كان يقتني طقماً للعمل وآخر للمناسبات. أما المرأة فكانت تكتفي بثلاثة غيارات.

هذا المفهوم الاقتصادي للباس والذي قد نعتبره متقشفاً في أيامنا هذه كان يستند الى ثقافة تقليدية، غير متمفصلة على نمط الانتاج الرأسمالي. هذا المفهوم كان منسجماً مع نمط الانتاج الحِرَفي الذي كان قائماً في لبنان قبل الغزو الاوروبي للمنطقة اقتصادياً وسياسيّاً وعسكرياً.

غير أن دخول الانتداب الفرنسي على الخط سرّع وأنضج عملية تبعية السوق المحلية ـ شكلاً ومضموناً ـ للسوق الرأسمالية الغربية. مما دفع أيضاً مفهوم اللباس، كفكرة، الى قاعة العمليات الجراحية حيث أجريت له عملية إعادة تأهيل. خرج مفهوم اللباس القديم من هذه العملية مطعّماً بملحق هو فكرة الموضة، وقود الاستهلاك.

عندها بدأ مفهوم اللباس يختلف، في أذهان الناس، وبدأ الناس يرون في اللباس أشياء مختلفة نسبياً عن تلك التي كانوا يرونها فيه سابقاً. فالموضة التي لعبت دوراً اقتصادياً بارزاً ساهمت أيضاً في ترويج مفاهيم جديدة ـ البعض يقول حديثة ـ وأدخلت الملابس في فلك تصورات غيّرت في المعطيات المحلية المطروحة سابقاً.

فعبر الموضة دخلت عملية التثاقف عمق التغييرات فيما يخص الملابس.

اختلفت، على سبيل المثال، المعادلة السابقة التي كانت تعتمد على أن يكون اللباس الرجالي الأكثر تنوعاً والأكثر اتقاناً وتفنّناً. رافق مفهوم الموضة المنقول عن الغرب طرح معادلة يطغى اللباس النسائي فيها على اللباس الرجال كمّاً ونوعاً. فأصبح تنوّع اللباس النسائي أوسع بكثير مما كان عليه في السابق وأكثر تفنّناً، خاصة وأنه ترافق مع أدوات الماكياج.

وفي حين ان خياطة ملابس الرجل كانت تتمّ سابقاً في السوق وثياب المرأة في المنازل (ما عدا صدرية الدامر التي كان يصنعها الخياطون لنساء الأغنياء).

بدأ اللباس الجاهز يفرض نفسه لكونه جاهزاً وعملياً ومتنوع الألوان. بدأت النساء، الأكثر قابلية لعملية التثاقف في هذا المجال (خاصة وأن هذه العملية تأتي لصالح معادلة معرفية تتساوى فيها المرأة مع الرجل) بارتداء اللباس الغربي وتعتاد عليه رويداً رويداً، معتمدة في ذلك على الجو العام الذي أشاعه الانتداب.

ويبدو أن هذه العملية خضعت الى سلم تدريجي وخطة تصعيدية خفية أدت بها، خلال خمسين سنة، إلى الوضع الذي نحن فيه.

فاللباس النسائي الغربي الذي بدأ يروج ارتداؤه على الصعيد الشعبي في الأربعينات في بيروت، وفي الخمسينات في طرابلس والشمال، شمل اللباس أول الأمر. في الريف العكاري مثلاً بدأت النساء المتزوجات بارتدائه دون سواها. فالصبايا والعازبات كنّ ينتظرن حتى يتزوجن حتى يُسمح لهن، في العرف الاجتماعي العام، بارتداء اللباس الغربي.

ثم بدأ ارتداء الملابس الغربية، في الستينات يشمل الجميع، من متزوجات وغير متزوجات. فأصبح اللباس المعتمد عند الجميع هو اللباس الغربي. بقيت الجدات فقط في زيّهنّ القديم.

ثم بعد فترة بدأ الالتزام بالماكياج. دشنت الخطوة النساء المتزوجات هنا أيضاً. حيث أن العرف الاجتماعي لم يكن يحب أن تتمكيج غير المتزوجة. الى أنه بعد فترة أصبح الماكياج للجميع، متزوجات وعازبات.

هكذا تبدل تدريجياً معقل كان، حتى القرن الماضي، ذكورياً وبطركي الطابع.

فالوجاهة في اللباس كانت للوجيه في المجتمع، للرجل، للأب، بالمعنيين القرابي والسياسي للكلمة. أما حالياً فالوجاهة في اللباس أصبحت، دون منازع، للمرأة. فانقلبت معرفياً معادلة تقليدية كان عمرها قروناً. بقيت الوجاهة والبطركية للرجل، ولكن في مجالات أخرى.

انتزعت الأيام من الرجل هذا الحقل، ربما الثانوي بالنسبة إليه، حيث انه لم يستمت في الدفاع عنه، وجعلته حقلاً تتعادل فيه المرأة مع الرجل.

حتى ان لبس البنطلون أصبح سمة مشتركة عند الجنسين.

* كما غابت حساسية اللباس، إذا صح التعبير، التي كانت ترافق مفهوم اللباس سابقاً. غابت على الصعيد الجماعي بحيث لم يعد من أشكال أو من ألوان تلتزم به الطوائف.. فالكل حرّ بأن يرتدي ما يحلو له وما يناسب الذوق العام الاستهلاكي. لم يعد اللباس ذاك القيد الاجتماعي والسياسي، بل أصبح مجالاً يتحرر الانسان فيه نسبياً من القيود التقليدية.

غابت حساسية الدَّوْس على الشملة (فإن دَاسَ أحدهم على زنارك، هل ستعتبره تحدياً؟) وغابت حساسية وجاهة اللباس بالمعنى السياسي للكلمة لتصبح مجال تباهٍ اجتماعي واقتصادي. فالذي يتباهى بلباسه ليس الشيخ (عبر المشلح المطرز) بل ذاك الذي يستطيع أن يشتري لنفسه طقماً أوروبياً يحمل توقيع أحد الخياطين الفرنسيين المشهورين عالمياً. وفي هذه المعادلة يغدو الغني أقوى من السياسي.

انتقل مجال الحساسية من خط الوجاهة السياسية الى خط الوجاهة المادية والمالية. فإلى جانب المرأة يتبيّن أن الرابح من

تغير المعادلة السابقة هو أيضاً الرجل. ولكن الرجل الميسور الذي أصبح في ظل الاقتصاد السياسي الجديد أقوى نسبياً في هذا المجال من الوجيه السياسي. أو انه تعادل معه على الأقل. فانتزاع اللباس من وجاهة الباشا والبيك والآغا (المكرّسة في أشكال محددة) الى وجاهة رجل الأعمال الغني خطوة خفية عرفها اللباس عندنا تجدر الاشارة اليها.

*

ختاماً، يتبين لنا أن اللباس كان مجال جذب بين نمط عيش سابق ونمط عيش لاحق. وفي اطار هذين النمطين تبدّلت الأمور، بعد أخذ وردّ تدريجي وعمليات قضم وهضم متتالية في العرف الاجتماعي، لصالح أطراف جديدة.

وبغضّ النظر عن الرابح والخاسر في عملية الانتقال هذه، الواضحين بالمناسبة، يهمّنا ان نشير الى أن عادات اللباس شهدت تغييرات جذرية عندنا. هذا التغيير طال شكل ومضمون اللباس. انتقلنا بعملية التغيير هذه من صورة اقتصادية معينة الى صورة اقتصادية مختلفة ومن تصور اجتماعي معين الى تصور اجتماعي مختلف ومن معادلة معرفية محددة الى معادلة معرفية جديدة.

تجلت في اللباس تحولات كثيرة وتقاطعت تأثيرات خارجية مع حاجات محلية. وهذا ما جعل حقل اللباس أغنى الحقول تجدداً وتجديداً.

حيث ان عملية التغيير في الأشكال طالت جدلياً المضامين. من تجديد شكل اللباس انتقلنا الى تجديد مفهوم اللباس والأعراف الاجتماعية المرافقة له.